

على ضوء الشعر الملتزم في صدر الإسلام

الدكتور فيروز حريجي

جامعة طهران

يورد الكاتب في المقال حديثاً عن تاريخ الشعر الملتزم في صدر الإسلام والتطور الذي شهده. ويضم المقال الحديث عن كيفية انقسام الشعراء في صدر الإسلام وانحياز كل منهم إلى اتجاه تبنّاه عقيدة وعبر عنها بشعره هجواً ومدحاً. لذلك يذكر الكاتب عدداً من شعراء كل الفريقين ويورد بعض أشعارهم والكتب التي تضمها. وفي المقال أيضاً يورد الحديث عن موضوعات وكلمات جديدة لم تكن مألوفة في العهد الجاهلي. وللرثاء والهجو في هذا العصر دور كبير وأهمية خاصة ويبدو فيه خصائص ممتازة عن غيرها، لاسيّما المراثي التي عبر عنها الشعراء في وفاة النبي (ص) وأصحابه وأعدائه. من جانب آخر شعر الفتوح ظهر في هذا العصر وتحكم دعائمه وعزز أركان الشعر الديني الحماسي وإن وقع فيها أحياناً بعض التحريفات والتصحيفات بسبب الأغراض السياسية التي لا تسمح طبيعتها أن تبقى النصوص الشعرية والنثرية سالمة من التغيير والتصحيف. ومن أهم خصائص الشعر في هذا العصر نشاهد أثراً ملحوظاً للمفاهيم القرآنية الواردة في أشعار شعراء هذا العصر.

الدعوة الإسلامية والهجرة والفتوحات والحروب التي خاضها النبي (ص) دفعت الشعراء يقتبسون مفاهيم سامية غير مألوفة في الشعر العربي.

وهو «ما لا يدرك كله لا يترك كله» ونشير إشارة عابرة إلى أن الشعراء لدى ظهور الاسلام نظموا أشعارهم على ما كان الشعر الجاهلي في موضوعاته وأساليبه المذكورة في تاريخ الآداب والكتب التي تدرس مناهج الشعر الجاهلي وموضوعاته دراسة مفصلة أو موجزة⁽¹⁾ ونذكر أن أكثر هؤلاء الشعراء وافاهم الأجل قبل أن يعتنقوا الاسلام. فجدير بنا أن لا نعدّ بعض الشعراء كدريد بن الصمة وأمّية بن أبي صلّ والاسود بن يعفر

إن الحديث في تاريخ الشعر الملتزم في صدر الاسلام والتطور الذي طرأ عليه منذ ظهور الاسلام يحتاج إلى كتابة مقالات أو تأليف كتب مبسطة تناقش هذا الموضوع مناقشة دقيقة تغني القارئ أو الباحث إلى حدّ ما عن مراجعة الكتب المختلفة التي دونت حوله. ومما لا ريب فيه أن التفصيل في هذا لبحث لا يسعنا في هذه المقالة ولا كل من يطّلع على منهج لبحوث التاريخية الأدبية فنتمسك بالقول المشهور لدى العرب

النَهْشَلِيَّ من المخضرمين بالمعنى الصحيح إذ أن معظمهم قضا نحبهم قبل إسلامهم ولم يحفظوا بالمبادئ الاسلامية السامية التي دعا إليها رسول الله (ص).

ومما لا يخفى على أحد أن قريشاً تحذوا الله ورسوله (ص) الأمر الذي تخض عنه الهجرة من مكة إلى المدينة واندلع بين أبنائها صراع عقائدي وقفت فيها قريش وأنصارها العرب في جانبٍ ضد النبي وأصحابه ووقف محمد (ص) ومن هاجروا معه والتفوا حوله في جانب آخر مدافعين عن دين الله وكيان الاسلام الذي كان يهدد بأخطار ودسائس هائلة وهذا في الوقت الذي نرى فيه أن الشعراء سلوا أسنتهم من أغنادها ونظم شاعر كل فرقة شعره في الدفاع عن قومه وعقائدهم وهجا أو غير في أشعاره كل من يعارضون جماعته وأفكارها.

ولم تكن مكة تشتهر في الجاهلية كما ورد في كتب تواريخ الأدب بالشعر وكثرة الشعراء، غير أن أبا الفرج الاصبهاني روى أبياتاً من شعرائها في أغانيه وعزاها إلى ورقة بن نوفل ونبيه ومسافر الذين ترجم لهم في كتابه^(٢)، ولكن لما نشبت حرب كلامية بين أهل مكة وبين النبي (ص) وأصحابه فانتنا نلتقي بأساء كثير من الشعراء المعارضين لرسول الله (ص) وأنصاره كأبي سفيان بن حارث وعبدالله بن الزبيرى وضرار بن الخطاب الفهري وأبي عزة الجمحي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ولم تشن هذه الجماعة من الشعراء هجماتها العدائية في أشعارها ضد رسول الله (ص) والمهاجرين بمكة فحسب، بل أشاعت الفساد والزندقة بين القبائل العربية بسبب انحرافهم الفكري وصدت عن سبيل الله، مما أفضى إلى أن قال النبي (ص) «لأنصار: ما يمنع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلحهم أن ينصروه بألسنتهم؟»^(٣). فقال حسان ابن ثابت الأنصاري: «أنا لها وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به معول بين بصرى وصنعا». ولما قال النبي (ص) له كيف تهجوهم وأنا من قريش؟ فأجاب حسان: «إني أسلك منهم كما تسلك الشعرة»^(٤) من العجين.

وبعد أن أطلق حسان لسانه في الدفاع عن رسول الله (ص) وأصحابه وطعن وهجا في أشعاره المثيرة أعداء النبي (ص) انضم إليه عدد آخر من الشعراء كعبد الله بن رواحة

وكعب بن مالك ونفقت بعد هذه الآونة سوق الهجاء والطنن بين شعراء مكة والمدينة بحيث من يراجع سيرة ابن هشام يرى أن ابن هشام نقل عن ابن اسحاق أبياتاً من الشعر إثر كل غزوة وقعت بين المسلمين وأعدائهم كغزوة بدر^(٥) في سنة ٢ هـ وغزوة أحد في سنة ٣ هـ وغزوة خندق في سنة ٥ هـ وفتح مكة في سنة ٨ هـ ولكن حري بنا أن نرتاب فيما نقله ابن اسحاق إذ أنه روى أشعاراً مفتعلة لا يجوز الاعتماد عليها دون تمحيص وتدقيق.

إن أهم المراجع التي روت كثيراً من أشعار الشعراء الذين خالفوا الاسلام وسدوا سهام غضبهم على النبي (ص) وأصحابه هو طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي الذي أورد في كتابه بمناسبات عديدة ماجرى على السنة الشعراء المعارضين من الهجاء والطنن والتعريض ضد رسول الله (ص) وأصحابه، فقد ذكر ابن سلام مثلاً (لابن الزبيرى الأبيات التالية التي قالها بعد وقعة بدر:

لَيْتَ أَشِيَاخِي بِيَدِ شَهِدُوا
ضَجَرَ الْخُرْجِ مِنْ وَقَعِ الْأَسْلُ
حِينَ أَلَقْتَ بِقُبَاءِ بَرَكْهَا
وَأَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي عَبْدِ الْأَسْلُ
فَقَبِلْنَا النِّصْفَ مِنْ سَادَتِهِمْ
وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَأَعْتَدَلُ^(٦)

ومن الشعراء الذين خالفوا الاسلام وانتصبا للعداوة للنبي (ص) وأنصاره هما أبو عزة الجمحي وهبيرة بن أبي وهب كما أن هبيرة بن أبي وهب نظم في يوم أحد^(٧):

قُدْنَا كِنَانَةَ مِنْ أَكْنَفِ ذِي يَمَنِ
عُرْضَ الْبِلَادِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا
قَالَتْ كِنَانَةُ: أَنَى تَذْهَبُونَ بِنَا
قُلْنَا النُّخَيْلَ فَأَمَوْهَا وَمَا فِيهَا

مهما يكن من أمر فقد ظهر مقابل المعارضين للاسلام فريق من الشعراء الذين جعلوا الحماية والتأييد للاسلام أول واجبهم وقاموا بالدفاع عن النبي (ص) وأتباعه، ومنهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة، وقيل إن حسان بن ثابت قال الأبيات التالية يدافع بها عن النبي وأصحابه وهجو فيها قريشاً ويهددهم ولعلها أول شعر جرى على لسان الشاعر في حماية رسول الله (ص):

على ضوء الشعر الملتزم في صدر الاسلام

نماذج منها ولا بد أن نذكر أن فتح مكة غيرت الأوضاع السائدة فيها وأدت إلى تعزيز المسلمين وأصحاب النبي (ص) بحيث أن المعارضين من الشعراء انضَموا إلى المؤيدين للدين الجديد واستعاذوا برسول الله واسترحموه، كما أن ماجرى بين النبي وكعب بن زهير وزُئيم بن أنس الكِنَافِي مشهور ومذكور في كتب الأدب والتراجم وهما هو زُئيم بن أنس الذي هجا النبي (ص) قبل فتح مكة بأبيات نراه يُسرِع إليه تائباً ويمدحه ويقول:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ^(٨)
أَتَهَجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ
فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ

فهذه الأبيات من القصيدة التي مطلعها:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ
إِلَى عَذْرَاءٍ مَنَزَلُهَا خَلَاءُ^(٩)

وما حَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا
أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ^(١٢)
وهذا البيت من أمدح بيت في رسول الله (ص) بحيث لما سمعه دعبل بن علي قال: «هذا أصدق بيت قالته العرب»^(١٣). ويقول زُئيم بن أنس الكِنَافِي خلال هذا الشعر:

نَبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّى هَجَوْتُهُ
فَلَا رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَيَّ إِذَا يَدِي^(١٤)
ومن الشعراء الذين ندموا على ما أسلفوه من هجاء المسلمين والوقوف في فريق المخالفين للإسلام هو أبو سفيان ابن الحارث الذي نراه سادماً يمدح نبي الإسلام (ص) بعد فتح مكة بما يلي:

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً
لَتَغْلِبَ خَيْلُ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ
أَنَا الْمُدْلِجُ الْحَيْرَانَ أَظْلَمَ لَيْلُهُ
بعيداً أُرْجَى حِينَ أَهْدَى وَأَهْتَدِي^(١٥)

ولأبي طالب قصيدة ذكرها ابن سلام في طبقاته حيث قال: كان أبو طالب شاعراً جَيِّدَ الكلام وأبرعَ ماقال قصيدته التي مدح فيها النبي، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بَوَجْهِهِ
رَبِيعُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ^(١٦)
وقال ابن سلام بأن هذه القصيدة قد زيد فيها وطُوت^(١٧) ومن القصائد في مدح النبي في صدر الإسلام هي القصيدة التي كان الأعشى قد أعدّها في مديح الرسول ولم ينشدها بين يدي الرسول (ص):

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا
وَعَادَكَ مَاعَادَ السُّلَيْمِ مُسَهَّدَا

والجدير بالذكر أن حسان بن ثابت دافع عن الإسلام ورسوله دفاعاً شديداً وهجا أعداء الدين الحنيف هجاء لا ذعاً بحيث أن النبي (ص) قال في شأنه: «لهذا أشدُّ عليهم من وقع النبيل»^(١٠). وكان أشعاره خير وسيلة للدعاية الإسلامية التي احتلت مكانها في العصر الحاضر وسائل الاعلام وورد في الأغاني^(١١) أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة كانا يذكران في أشعارهما أساءة الوقائع والغزوات الإسلامية والهزائم التي أصابت أعداء النبي (ص) من المشركين ويهجون المعارضين للإسلام من قريش هجاءً عنيفاً ويثلبانهم بمطالب ألحقت بهم العار ولكن ما هجا به حسان قريشاً كان أكثر تأثيراً وعاراً لهم قبل إسلامهم لأنه كان يبحث عن موارد ضعفهم الخلفي والسلوكي كأفعالهم المذمومة من البخل والجبن والفرار في أيام الحرب قبل الإسلام أي كان يعيبهم برفض نفس القيم والمعايير الخلقية والانسانية التي كانوا يعتمدون عليها ويلزمون الآخرين بها؛ فبذلك أن قريشاً كانوا يقاسون مقاساة شديدة مما كان حسان يأتي به في أشعاره في هجائهم وذكر عيوبهم وأما ما أتى به عبد الله بن رواحة في هجاء قريش وطعنهم فكان أكثر تأثيراً وعبياً لهم بعد إسلامهم إذ أنه كان يصفهم قبل إسلامهم بالكفر والزندقية مما كان قريش يعترفون ويفتخرون به، بعبارة أخرى أن العار الذي بقيت تبعته من أشعار عبد الله بن رواحة كان أشدَّ تأثيراً لقريش بعد إسلامهم مما نظم حسان في طعنهم فمهما يكن من أمر فإن الشعراء قبل فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ظهروا في فريقَي المؤيدين والمعارضين للإسلام وقد رويت لشعراء كل فريق منها أبيات من الشعر في كتب الأدب والتاريخ كما ذكرنا

المعيشة. والأمور الاقتصادية والسياسية حتى تغير المنهج الشعري الذي كاد ينحصر لدى الجاهليين بالوقوف على الآثار البالية ووصف الذكريات التي قضها الشعراء عند حبيبتهم وأصدقائهم وذكر انضاء الرواحل وقطع الفيافي القاحلة مما جعل الشعر الجاهلي خشناً قاسياً من حيث الألفاظ والمعاني ينطبق على البيئة الجاهلية التي أهدت بها فيها من الغلاظة على العرب قبل الإسلام.

من أهم المواضيع التي ظهرت بعد الاسلام هو الرثاء للنبي (ص) وأصحابه وقتلى الغزوات وشهادتها وهذا الرثاء ولو كان مما شاع لدى الجاهليين ولكنه لم يكن يمتاز بما امتاز الرثاء الملتزم في صدر الاسلام كاستعمال الألفاظ والمصطلحات المأخوذة من القرآن والحزن والجزع على القتل بالقيم والمقاييس التي أيدها الإسلام ورسوله (ص) وهذه المراثي كثيرة ومعظمها جاءت في كتب الأدب والتاريخ كسيرة النبي (ص) لابن هشام ومن أحسنها الرثاء الذي أنشده حسّان بعد وفاة النبي (ص) حيث قال:

بَطِيئَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدُ
مُنِيرٍ وَقَدْ تَعْفُو الرِّسُومُ وَهَمْدُ
وَلَا تَمْتَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي الَّذِي كَانَ يَضَعُ
بِهَا حُجْرَاتُ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
مِنَ اللّهِ نَوْرٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ (٢٣)
وقال حسّان بن ثابت يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله:
مَنْ ذَا الَّذِي عِنْدَهُ رَحْلِي وَرَاجِلِي
وَرِزْقُ أَهْلِي إِذَا لَمْ يُؤْنَسُوا الْمَنْطَرَا
كَانَ الضِّيَاءُ وَكَانَ النُّورُ تَتَّبِعُهُ
بَعْدَ الإِلَهِ وَكَانَ السَّمْعَ وَالْبَصْرَا
فَلَيْتَنَّا يَوْمَ وَارُوهُ بِمَلْحِدِهِ
وَعَيْبُوهُ وَالْقَوَا فَوْقَهُ الْمَدْرَا
لَمْ يَتْرُكْ اللّهُ مِنَّا بَعْدَهُ أَحَدَا
وَلَمْ يَعِشْ بَعْدَهُ أُنْثَى وَلَا ذَكَرَا (٢٤)

من الحري بالذكر أن الإسلام انتشر في جزيرة العرب بعد السنة التاسعة من الهجرة وأصبحت هذه الجزيرة مهد الإسلام ومركزه ولم يبق هناك بشكل ملحوظ أثر من عبادة الأصنام والشرك تقريباً، ولكن ماملِك أبو بكر ناصية الأمور بيده إلا

أَلَا أَيُّهَا الذَّا السَّائِلِي أَيَّنَ يَمَّتْ
فَإَنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَشْرِبَ مَوْعِدَا
فَالْتَمْتُ لَا أَرْبِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ
وَلَا مِنْ حَفَا حَتَّى تَزُودَ مُحَمَّدَا
نَبِيُّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرَهُ
أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا (٢٥)

والقصيدة التي عُرِيت للأعشى ووردت في أخبار الأعشى ونسبه من كتاب الأغاني الذي يمتاز بأهوية خاصة (٢٦) وذكرها الدكتور عمر فروخ في تاريخ آدابه كما ذكرناها فلا أدري ماهي الدلائل التي حدث الدكتور شوقي ضيف على أن يعدها منتحلة ومختلفة من أصلها كما قال: لا شك أنها منحولة (٢٧).

ولعباس بن مرداس قصيدة يمدح فيها النبي (ص) ويذكره بأوصاف تدل على أن الشاعر آمن بالله ورسوله وتأثر بالمصطلحات والألفاظ الجديدة التي شاعت في اللغة العربية بسبب بعثة النبي (ص) ونزول القرآن، فإليك بعض الأبيات منها:

لَعْمَرِي إِنِّي يَوْمَ أَجْعَلُ جَاهِدَا
ضَارَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مُشَارِكَا
وَتَرْكِي رَسُولَ اللّهِ وَالْأَوْسُ حَوْلَهُ
أَوْلَيْكَ أَنْصَارُ لَهُ مَا أَوْلَيْكََا
كَتَارِكِ سَهْلِ الأَرْضِ وَالْحَزْنِ يَبْتَعِي
لَيْسَلُكَ فِي غَيْبِ الأُمُورِ الْمَسَالِكَا
فَأَمَنْتُ بِاللّهِ الَّذِي أَنَا عَبْدُهُ
وَخَالَفْتُ مَنْ أَمْسَى يُرِيدُ الْمَالِكَا
وَوَجَّهْتُ وَجْهِي نَحْوَ مَكَّةَ قَاصِدَا
وَتَابَعْتُ بَيْنَ الأَخْشَبَيْنِ الْمَبَارِكَا
نَبِيُّ أَنَا بَعْدَ عَيْسَى بِنَاطِقِ
مِنَ الْحَقِّ فِيهِ أَلْفُضْلُ مِنْهُ كَذَلِكََا
أَمِينَا عَلَى الأَلْفُرْقَانِ أَوْلَى شَافِعِ
وَآخِرُ مَبْعُوثٍ يُجِيبُ الْمَلَانِكَا
تَلَا فِي عُرَى الإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْفُسَاهَا
فَأَحْكَمَهَا حَتَّى أَقَامَ الْمَنَاسِكَا (٢٨)

بعد أن ظهر الاسلام ونزل القرآن الكريم بدت المواضيع الشعرية التي لم تكن شائعة على الأساليب والمصطلحات التي كان الشعراء الجاهليون ينسجون أشعارهم على منوالها إذ أن الدين الجديد غير كل ما يكون في حياة العرب من آداب

أخرى أن الشعر الملتزم في هذا العصر يرمي غرضاً رئيسياً هو إعلاء كلمة الله ودعم التوحيد ونشره بين الناس جميعاً. ومن المواضيع الجديدة التي تستهوي نظر الباحثين وتستدعي عيونهم، فهو ظهور أرقّ الأشعار وأحزنها التي أنشدها الشعراء المسنون الذين بعثوا أولادهم إلى ساحة الجهاد مما أفضى إلى أن يبث هؤلاء الشعراء شكواهم وجزعهم في فراق أولادهم المتبعدين عنهم كما أن المخبل السعدي لما بعث ولده شيبان في جيش سعد بن أبي وقاص لمحاربة الفرس أنشد أشعاراً حزينة مبكية أثرت في عمر بن الخطاب الذي أمر قائده سعد بن أبي وقاص لإعادة شيبان إلى أبيه، فهذا هو المخبل السعدي يقول:

إذا قال صحبي ياربِيعُ ألا ترى
أرى الشخصَ كالشخصين وهو قريبٌ
ويُخبرني شيبانُ أن لن يعقني
تعيُّ إذا فارقتني وتُحوبُ^(٢٧)

وللرثاء في هذا العصر دور كبير وأهمية خاصة ويبدو فيه خصائص يمتاز بها دون غيرها خاصة المراثي التي جرت على لسان الشعراء في وفاة النبي أو أحد من الصحابة ولعل أروع مرثية في رسول الله (ص) هو مقاله حسان بن ثابت الأنصاري:

مابلُ عَيْنِكَ لا تَنامُ كَأَنما
كُجِلتْ مَأقِها بِكُحْلِ الأَرَمِدِ
بأبي وأمي من شَهِدْتِ وفاتِهِ
في يَوْمِ الإِثْنينِ النَّبِيُّ المُهْتَدِي
فَظَلَّتْ بَعْدَ وفاتِهِ مُتَبَدِّلاً
مُتَلدداً بِاليَتِي لِمَ أُولِدِ
بأربِ فَأَجعنا وَبَينا مَعاً
في جَنَّةِ تَنِي عَيونَ المُسَدِ
في جَنَّةِ الفِرْدوسِ فَأَكْتَبها لَنا
بأذا الجَلالِ وَذا العُلا وَالسُّؤدِ^(٢٨)

إن الرثاء بعد وفاة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، له أسلوب لم يسبق فيما رثاه الشعراء الخلفاء قبله إذ أن الشعراء الذين رثوا له ونظموا المراثي في وفاته راموا من الرثاء نوعاً من الإحتجاج على من غصبوا حقوقه ببواعث ودواع شهدها تاريخ الإسلام، وفي الواقع أن هذا الفريق من الشعراء

أن ارتطمت أمواج الإرتداد والكفر مما جعل أبا بكر بأن يستشير الكبار من الصحابة ويحثشد جنوداً بقيادة خالد بن الوليد ويبعثهم لقمع رواد الإرتداد والشرك، وفي هذه الأيام حدثت مجادلة ومناقضة بين الشعراء من الملتزمين بالإسلام ومخالفيه وظهرت موضوعات جديدة للشعر السياسي الملتزم في صدر الإسلام، ومنه أن شعراء كل فريق من المعارضين والمؤيدين للإسلام أنشدوا قصائد تعبر عن شجاعة وبطولة جماعة كانوا يحمونها ويدافعون عنها ونظموا مرثي حزيمة لقتلهم في حروب الردة ومن جانب آخر فإن الشعراء من المسلمين هجوا بشعرهم الكفار والمارقين من الدين ورثوا شهداءهم بأبيات مبكية وبكوا فيها على موتاهم، ولما كانت هذه المراثي للشعراء المسلمين تنبعث عن توحيدهم وعقائدهم الإسلامية فإنها منقطعة النظر في نوعها وتظهر الجدة والبداعة في تعبيرها ومواضيعها ظهوراً واضحاً؛ مثلاً أن مالك بن نويرة^(٢٥) زعيم بني يربوع يستشهد في هذه الحروب ويرثي له أخوه متمم بن نويرة بأبيات محزنة تزلزل القلوب وتقلعها من الصدر، أو يقتل سجاح ومسيلمة الكذاب اللذان أدى موتها إلى أن يظهر تطور عظيم في الرثاء للشعر العربي، فانظروا كيف يُنذر الحارث ابن مرة بني عامر ويعظهم:

بني عامرٍ إن تَنصُروا اللّهَ تَنصُروا
وإن تَنصِبوا لِلّهِ والدينِ تُخَدَلوا
وإن تُهزَموا لا يُنَجِّكم مِنْهُ مَهْرَبُ
وإن تَتَّبِعُوا لِلقُومِ واللّهِ تُقَتَّلوا^(٢٦)

وهناك شاعر آخر باسم أوس بن بجير الطائي الذي قال في موقعة عين بزاخة دفاعاً عن الإسلام وكان شعره ملحمة دينية تنبعث عن صميم اعتقاده وتبين عن استحكامه في دينه: وَلَيْتَ أبا بكرِ يرى مِنْ سِوِنا
وَمَناخَتِلي مِنْ أذرعِ وِرقابِ
ألم تر أن اللّهَ لا رَبَّ غَيرُهُ
يَصُبُّ على الكُفّارِ سَوطَ عَذابِ

من هذين البيتين المذكورين يبدو أن المراثي كلها للشعراء المسلمين تأثرت من حيث الألفاظ والمعاني بالمبادئ الإسلامية والآي القرآنية التي نفذت في قلوبهم وجرت على ألسنتهم شعراً صادقاً مفصلاً عن توحيدهم وعواظفهم الدينية، بعبارة

مزجوا رثاء علي (ع) ببطولاتهم وشجاعتهم ضدّ المعارضين الذين سلبوا الأولوية من علي (ع) لخلافة رسول الله (ص) المصرّح بها من جانب صاحب الشريعة (ص) وعبروا في أشعارهم الرثائية عن عقائدهم الدينية التي نوا بها اختطاط برنامج الثورة الإسلامية للعصور الآتية إحياءً للدين واتباعاً لمنهج أهل البيت عليهم السلام، ومن أروع رثاء في الامام علي (ع) ما قاله أبو الأسود الدؤلي:

ألا أبلغ معاوية بن حرب
فلا قرّت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتُمونا
بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا
وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها
ومن قرأ الثاني والمينا
إن استقبلت وجه أبي حسين
رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث حلت
بأنك خيرها حسباً وديناً^(٣٩)

إن شعر الفتوح من أهم الموضوعات التي ظهرت في هذا العصر وتحكمت دعائمها خاصة الأشعار التي أنشدها الشعراء المسلمون بمناسبة الحروب التي نشبت واندلعت نيرانها بين المسلمين والمعارضين لهم من الفرس والروم، إذ أن الفتوح للبلاد غير الإسلامية فتحت أفقاً جديداً في الأدب الملتزم لهذه الفترة وعززت أركان الشعر الديني الحماسي، مثلاً القادسية هي التي تجعل بأن يشتهر البطل الإسلامي أبو محجن الثقفي ويجري اسمه معجبابه على السنة جيوش المسلمين وأعدائهم، وكما ذكر أن هذا الباسل كان حين وقوع القادسية مسجوناً، فطلب من زوجة سعد بن أبي وقاص أن يطلق سراحه ويشارك فيها لينال الشرف والمجد^(٤٠) ويلتصع اسمه في صفحات تاريخ الإسلام، كما أنه بعد أن قاتل الكفرة والمشركين بشجاعة وبطولة بهرت العقول وأعجبت البسلاء عاد إلى سجنه وقال في القادسية مفاخرًا:

لقد علمت تقيف غير فخر
بأننا نحن أكرمهم سيوفاً

فإن أحبس فقد عرفوا بلائي
وإن أطلق أجرعهم ختوفا
ومن الأبطال المشهورين الذين شهدوا القادسية فهو عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي أظهر فيها الشجاعة والصمود وشهد غيرها في وقعة اليرموك ونهاوند ونال شرف الجهاد وبركة الإسلام، ومن شعره في القادسية^(٣٨):

والقادسية حين زاحم رستم
كنا الحيا بين كالأشطان
الضارين بكل أبيض مخدّم
والطاعنين بجامع الأضغان
وهناك بعض الشعراء الذين أسهموا في الجهاد ضدّ المشركين لينالوا ثواب الله وأجره ومنهم عبدة بن الطبيب الذي شهد القادسية والمدائن وأبلى فيها بلاءً حسناً وهو الذي قال صاحب الأغاني في ترجمته:

وعبدة شاعر مجيد ليس بالمكثر وهو مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا معه الفرس بالمدائن، وقد ذكر ذلك في قصيدته التي أولها:
هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة في دار مجاورة
أهل المدينة فيها الديك والفيل^(٣٣)

خلاصة القول أن الشعر الديني الحماسي بلغ في عصر الفتوح قمة ازدهاره وكماله خاصة في أيام فتح ايران والروم ولو وقعت فيه أحياناً بعض التحريفات والتصحيفات بسبب الأغراض السياسية التي لا تسمح حسب طبيعتها أن تبقى النصوص الشعرية والنثرية سالمة من التغيير والتصحيف، وإذا حاولنا أن نطلع على مقدار ماوصلنا من هذه الأشعار واتجاهاتها الأدبية والسياسية فلا بد لنا أن نراجع الكتب المعتمدة من التاريخ والأدب كالأستيعاب والإصابة وتاريخ الطبري والأغاني وغيرها. أما متانة الأسلوب وجزالة الألفاظ التي نراها في شعر المخضرمين فإنها غير ملموسة في هذه الأشعار إذ أن أسلوب التعبير فيها يضاهاى نوعاً من الأدب الشعبي وهذا الأمر يبدو طبيعياً لأن هذا الفريق من الشعراء حاولوا أن يعبروا عن الحوادث موجزة سريعة ويسردوا فيها أساء الحروب والأبطال وأيام الهزائم والإنتصارات دون أن يكون

وَأَصْبَحَ مَا يَخْشَى ظِلْمَةَ ظَالِمٍ
بعيداً ولا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا
بَدَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا
وَأَنْفُسِنَا عِنْدَ الْوَعْيِ وَالنَّاسِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ
جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ الْعَبِيبُ الْمُوَاتِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لِأَشْيَاءَ غَيْرِهِ
وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا^(٣٤)

والإقتباس من المصطلحات القرآنية التي شاعت بظهور
الإسلام مما يظهر واضحاً في أشعار هذا العصر، كما أن عُوَيْمِرَ
ابن مالك بن قيس بن أمية الخزرجي المكنى بأبي الدرداء^(٣٥)
يقول:

يريد المرء أن يُؤْتَى مِنْهُ
وَأَبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا
يقول المرءُ فائدي ومالي
وتَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

والمغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم المكنى بأبي
سفيان المتوفى سنة ٢٠^(٣٦)، بعد أن هجا الإسلام في الجاهلية
تاب إلى النبي (ص) واستنار بنور الإسلام وتأثر من الألفاظ
والمعاني القرآنية، كما أن هذا الأمر يتضح لنا من شعره الذي
قاله في وفاة رسول الله (ص) يرثيه:
لَقَدْ عَظَّمْتَ مُصِيبَتَنَا وَجَلَّتْ
عَشِيَّةٌ قِيلَ قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ
نَبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشُّكَّ عَنَّا
بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يُقُولُ

وعبد بن الطبيب الذي ذكرناه من قبل هو الذي استلهم
من الآي القرآنية واستضاء بنور التوحيد، وقال في قصيدته
العينية يؤكد للعباد أن يعتصموا بحبل التقوى والإحسان إلى
والدين ومجذهم من الوشاية التي تدب في الصدور ديب
العقارب وتثير الفتن بين الناس، وتفضي إلى البغضاء والعداوة
بينهم:

أوصيكم بتقى الإله فإنه
يُعْطِي الرِّغَائِبَ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ
وَبِيرٍ وَالِدِكُمْ وَطَاعَةَ أَمْرِهِ
إِنَّ الْأَبْرَّ مِنَ الْبَنِينَ الْأَطْوَعُ

لديهم فرصة كافية لتدقيق أشعارهم وتمحيصها بعبارة أخرى أن
مُعْظَمَ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ أَسْهَمُوا فِي الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ ضَدَّ الْمُشْرِكِينَ
وَقَصَّوْا هَذِهِ الْوَقَائِعَ وَالْحُرُوبَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ دُونَ سَابِقَةٍ وَتَرَوُ
يلزم الشعر الفصيح جزيل الألفاظ متين الأسلوب، فبذلك لا
تتماز أشعارهم من الفصاحة والسلاسة التي توجد عند كثير من
الشعراء المخضرمين كأن الشعراء الملتزمين في صدر الاسلام
جعلوا الغرض الأساسي نصب أعينهم وهو أداء واجبهم للدين
الحنيف والدفاع عن الإسلام ورسوله (ص) مقابل المشركين
والمنافيين. ومن الجدير بالذكر أن بين هؤلاء الشعراء حسّان بن
ثابت الأنصاري الذي يعتبر أشعاره في نوعها آية البلاغة
والفصاحة في الشعر الملتزم في هذا العصر وهو مثال صادق ممتاز
لفصاحة الكلام وبلاغته.

إن الشعراء الذين ظهروا في صدر الاسلام يعدون في طبقة
المخضرمين وإن اتجاهاتهم ومناهجهم الشعرية لا تختلف
اختلافاً فاحشاً عن المميزات الشعرية لدى الجاهليين ولكن من
أهم خصائصهم أنه تأثروا وتأثراً جلياً من المعارف الاسلامية
والقرآنية وإن استهلوا قصائدهم كالجاهليين بالوقوف على
الآثار البالية والبيكاء عليها وذكر الأماكن والحبيبات في أولها
فإن المفاهيم القرآنية مما أثر تأثيراً ملموساً في أنواع شعرهم من
الهجاء والوعظ والمدح كما أن عبد الله بن رواحة يهجو
المشركين ويقول:

شَهِدْتُ بَأَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقُّ
وَأَنَّ النَّارَ مَثْوَى الْكَافِرِينَا
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ حَقُّ
وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالِينَا
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةُ غِلَاطٍ
مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مُسَوِّمِينَا^(٣٣)

إن المشاهير من شعراء هذا العصر كحسان بن ثابت وكعب
ابن مالك وعبد الله بن رواحة استقوا من مناهل القرآن العذبة
واقتبسوا من آياته العاطرة حتى أن الخاملين منهم كصرمة بن
أبي أنس الأنصاري استفاد من المعاني التي لاحت في الأدب
العربي ببركة المصحف الشريف:

فَلَمَّا أَنَا وَأَسْتَقَرَّتْ بِهِ النَّوَى
وَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَيْبَةِ رَاضِيَا

وَأَعَصُوا الَّذِي يُزْجِي النَّهَامَ بَيْنَكُمْ
مُنْصَحاً ذَاكَ السِّمَامِ الْمُنْقَعُ
يُزْجِي عَقَابِرَهُ لِيُبَعَثَ بَيْنَكُمْ حَرْباً
كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ

وعبد بن الطيب لما يحاول أن يرثي قيس بن عاصم يتأثر بالمبادئ الإسلامية ويحيي الميت بتحية إسلامية، ويطلب له رحمة الله تبارك وتعالى:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَرَحْمَهَا
نَحْيَةً مَنْ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً
إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطِ بِلَادِكَ سَلَمَا
وَمَا كَانَ قَيْسٌ هَلُكُهُ هَلُكَ وَاحِدٍ
وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدِمَا^(٣٧)

ولعلَّ الحُصَيْنَ بْنَ الْحَمَامِ خَيْرٌ مَنْ أَسْتَعْمَلَ الْمَفَاهِيمَ
وَالْتَرَكَبِ الْقُرْآنِيَةَ فِي شِعْرِهِ بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ إِذْ أَنْ
قَصِيدَتِهِ التَّالِيَةَ مِمَّا يَثْبُتُ أَنَّ الشُّعْرَاءَ الْمُلْتَزِمِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ
تَأَثَّرُوا مِنَ الْمُبَادئِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَفَتَحُوا فِي أَشْعَارِهِمْ بَاباً جَدِيداً فِي
الْإِقْتِبَاسِ مِنَ الْمَفَاهِيمِ السَّامِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
بِبَعْنَةِ النَّبِيِّ (ص) وَنَزُولِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

وَقَافِيَةٌ غَيْرُ أَنْسِيَّةٍ
فَرَضْتُ مِنَ الشُّعْرِ أَمْثَالَهَا
وَيَوْمَ تُسَعَّرُ فِيهِ الْحُرُوبُ
لَبَسْتُ إِلَى الرَّوْعِ سِرْبَالَهَا
مُضَعَّفَةَ السَّرْدِ عَادِيَّةً
وَعَضَبَ الْمَضَارِبِ مِفْصَالَهَا
وَمُطْرِداً مِنْ رُدَيْنِيَّةٍ
أَدُودٌ عَنِ الْوَرْدِ أَبْطَالَهَا
فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْتَقَى
وَنَفْسٌ تُعَالِجُ أَجَالَهَا
أُمُورٌ مِنَ اللَّهِ فَوْقَ السَّاءِ
مُقَادِيرٌ تَنْزِلُ أَنْزَالَهَا
أَعُوذُ بِرَبِّي مِنَ الْخُزْبَا
تِ يَوْمَ تَرَى النَّفْسَ أَعْمَالَهَا
وَحَفَّ الْمَوَازِينُ بِالْكَافِرِينَ
وَزُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا

ونادى منادٍ بأهل القبور
فَهُمُومٌ لِنُبْرٍ أَثْقَالَهَا
وَسُعِرَتِ النَّارُ فِيهَا الْعَذَابُ
وَكَانَ السَّلَاسِلُ أَغْلَالَهَا^(٣٨)

ومن يتأمل في الأبيات المذكورة فإنه يتبادر إلى ذهنه هذه الآيات ويتيقن أن الشاعر يعتز بإسلامه ويباهي بأن يتمثل في كلامه بما قاله الله تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٣٩) و ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ و ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾^(٤٠) و ﴿وَإِذَا زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَالَهَا، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾^(٤١) و ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ، نَارٌ حَامِيَةٌ﴾^(٤٢).

فاتضح لكم مما قدّمنا أن ظهور الإسلام وبعثة النبي (ص) ونزول القرآن ما أحدث تحولاً جذرياً في جميع الشؤون للأمم الإسلامية، وأوجد الأرضية لرقى الانسان وتزلفه إلى الله تبارك وتعالى، كما أن هذا التحول العميق نشاهده في الشعر الملتزم في صدر الاسلام فحقيق أن يدرس شعراء كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ولبيد بن ربيعة والنابغة الجعدي وكعب بن زهير، دراسة مبسطة نقدية تحليلية حتى ينكشف ما غمض من حياتهم واتجاهاتهم الأدبية وما قاسوه من المتاعب والانصاب التي بذلوها في انتشار الإسلام والدفاع عن الإسلام ورسوله (ص) في الآونة التي كان النبي وأصحابه يعانون من ضروب الضغوط والتعذيب، وليكون مقالتنا ختامها بالمسك نختمها ببعض الأبيات التي قالها كعب بن زهير في مدح النبي (ص):

أُنْسِيْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أُوْعِدُنِي
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيِّفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
مُهَنْدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُولُ
مهلاً هداك الذي نافلة آل
قرآن فيه مواعيط وتفصيل

المصادر والهوامش:

١- راجع: من تاريخ الأدب العربي، طه حسين (دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٨١)، ص ٨٧ - ١٠٧؛ وفن الوصف، ايليا الحاوي (المجلد

- الثالث، ١٩٥٩)، منشورات دار الشرق الجديد، ١٩٥٩).
- ٢- راجع: تاريخ الأدب العربي، للدكتور شوقي ضيف، العصر الاسلامي، (دار المعارف بمصر)، ص ٤٧.
- ٣- الأغاني، لأبي الفرج الاصبهاني، ج ٤، ص ١٣٧، طبع مؤسسة جمال للطباعة والنشر.
- ٤- الأغاني، ج ٤، ص ١٣٨.
- ٥- راجع: السيرة النبوية، لابن هشام، ج ٢، ص ٢٥٦ - ٣٠٢ (بتحقيق مصطفى السقاء، ابراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، طبع دار احياء التراث العربي).
- ٦- طبقات الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، ص ٥٨ (مطبعة بريل في مدينة ليدن، سنة ١٩١٣).
- ٧- طبقات الشعراء، ص ٩٥.
- ٨- الأغاني، ج ٤، ص ١٣٩.
- ٩- السيرة لابن هشام، ج ٤، ص ٦٣.
- ١٠- آداب اللغة العربية، للدكتور محمدي، ج ١، ص ٥٠ (مطبعة جامعة طهران، سنة ١٣٤٩هـ.ش).
- ١١- الأغاني، ج ٤، ص ١٣٨.
- ١٢- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ج ١، ص ٦٩ (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ.ق).
- ١٣- نفس المصدر، ج ١، ص ٦٩.
- ١٤- نفس المصدر، ج ١، ص ٦٩.
- ١٥- طبقات الشعراء، ص ٦١.
- ١٦- نفس المصدر، ص ٦٠.
- ١٧- نفس المصدر، ص ٦٠.
- ١٨- تاريخ الأدب العربي، للدكتور عمر فروح، ج ١، ص ٢٢٧ (طبع دار العلم للملايين، سنة ١٩٨٤)؛ السيرة لابن هشام، ج ٢، ص ٢٥ - ٢٧.
- ١٩- الأغاني، ج ٩، ص ١٢٥.
- ٢٠- تاريخ الأدب العربي، للدكتور شوقي ضيف، ج ٢، ص ٥٢.
- ٢١- الأغاني، ج ١٤، ص ٣٠٥.
- ٢٢- السيرة، لابن هشام، ج ٤، ص ٢٤ - ٢٩.
- ٢٣- نفس المصدر، ج ٤، ص ٣١٧.
- ٢٤- نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٢١.
- ٢٥- راجع: أصحاب المراثي في طبقات الشعراء، ص ٤٨، ومن الجدير بالذكر أن الردة لا تطلق على جميع الذين خالفوا الحكومة في المدينة.
- ٢٦- تاريخ الأدب العربي، للدكتور شوقي ضيف، ج ٢، ص ٥٤.
- ٢٧- الأغاني، ج ١٣، ص ١٩٠.
- ٢٨- السيرة، لابن هشام، ج ٤، ص ٣٢٠.
- ٢٩- الأغاني، ج ١٢، ص ٣٢٩. ونسبت الأبيات المذكورة في كتاب الجوهرة لمحمد بن أبي بكر الأنصاري التلمساني إلى أم هيثم بنت العريان النخعي. راجع: ترجمة الجوهرة، للدكتور فيروز حريرجي، ص ١٣٠ (طبع أمير كبير، سنة ١٣٦١هـ.ش).
- ٣٠- الأعلام، لخير الدين الزركلي، ج ٥، ص ٧٦. (طبع دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٩٨٦).
- ٣١- الأغاني، ج ١٥، ص ٢٢٥؛ الاستيعاب بهامش الإصابة، ج ٣، ص ١٩.
- ٣٢- الأغاني، ج ٢١، ص ٢٥.
- ٣٣- الاستيعاب بهامش الإصابة، لابن عبد البر النمري القرطبي، ص ٢٩٦.
- ٣٤- نفس المصدر، ص ١٠.
- ٣٥- الأعلام لخير الدين الزركلي، ج ٥، ص ٩٨؛ الاستيعاب بهامش الإصابة، ج ٣، ص ١٤ - ١٦.
- ٣٦- الأعلام، ج ٧، ص ٢٧٦.
- ٣٧- الأغاني، ج ٢١، ص ٢٦.
- ٣٨- الأغاني، ج ١٤، ص ١٤ - ١٥.
- ٣٩- سورة البقرة، الآية ٢٣٢.
- ٤٠- سورة الحجر، الآية ٢٢.
- ٤١- سورة الزلزال، الآية ٣،٢.
- ٤٢- سورة القارعة، الآية ٦ - ٨.